

المصطلح اللغوي في ديوان سقط الزند - دراسة في الاستعمال الأدبي

The Linguistic Term in Saqt Al-Zind Anthology - A Study in the literary Usage

Dr. Haider Abd Ali Hameedi
Ahmed Hasan Mansour

م.د. حيدر عبد علي حميدي^١
م.م. أحمد حسن منصور^٢
ملخص البحث:

تُعَدُّ المصطلحات مفاتيح العلوم، فلكلِّ علمٍ مصطلحاته الخاصّة به، و لا تتمكّن من الدخول في أيِّ علمٍ من العلوم حتى نتعرّف على مصطلحاته، و اللغة العربيّة واحدة من هذه العلوم التي لها مصطلحاتها الخاصّة بها، و هذه المصطلحات لم تكن مجرد مفاتيح عند بعض المبدعين، بل كانت المادة الأولى التي نسجَ منها إبداعه الأدبي، و منهم أبو العلاء المعري، إذ شكّل المصطلح اللغوي ظاهرةً بارزةً في أعماله الأدبية، يلمسها كلُّ من يتصفّحها.

يتضمّن البحثُ الحالي الكشفَ عن المصطلحات اللغويّة و كيفية استعمالها و توظيفها في ديوان (سقط الزند) للدلالة على معانٍ مختلفةٍ.

Abstract:

The keys to the terms of Sciences, Every science has its own terminology, And we can not engage in any knowledge of science even know the terminology, The Arabic language is one of those sciences that have their own terminology, And these terms were not just keys when some poets creators, But the raw material that weave them literary

١ - جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الانسانية.

٢ - جامعة كربلاء/ كلية التربية للعلوم الانسانية.

creativity, And including Abu Ala Marri, Shape the term linguistic phenomenon prominent in his literary works, Understood by all of his literary surfs.

This research includes the disclosure of the terms of language and how to use them in Diwan sakt alZend, To denote different meanings.

توطئة:

اعتراض بعض من النقاد على بعض الشعراء؛ بسبب استعمالهم المصطلحات اللغوية في إبداعهم الأدبي (شعراً و نثراً)، منهم: ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) إذ يقول: " و من وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم و الكلام المنشور من الرسائل و الخطب ألفاظ المتكلمين و النحويين و المهندسين و معانيهم و الألفاظ التي تختص بما أهل المهن و العلوم^(٣)، في حين نجد أن ابن الأثير (٦٣٧هـ) له رأي مخالف لرأي ابن سنان، إذ يقول: " إن صناعة المنظوم و المنشور مستمدة من كل علم و كل صناعة ؛ لأنها موضوعة على الخوض في كل معنى، و هذا لا ضابط له يضبطه، و لا حاصر يحصره، فإذا أخذ مؤلف الشعر أو الكلام المنشور في صوغ معنى من المعاني و أذاه ذلك إلى استعمال معنى فقهي أو نحوي أو حسابي أو غير ذلك فليس له أن يتركه و يجيد عنه ؛ لأنه من مقتضيات هذا المعنى الذي قصده " ^(٤)، إذ من المعروف لدينا أن الشاعر يستعمل كل ما أوتي من خبرات و معارف في نتاجه الأدبي، فكيف إذا كان هذا الأديب لغوياً في الوقت ذاته، فمن البديهي أن نلمس في ابداعه خبراته اللغوية، و من ضمنها مصطلحات اللغة.

و لم لا و هو ينظر إلى اللغة بعين الفيلسوف اللغوي الذي رصد فيها ظواهر الطبيعة و الوجود: كالتغيير و الفساد، و الصحة و الاعتلال، و سيطرة و قصور ذاتي، و جسم و روح، و عالم غيب و عالم شهادة^(٥).

فلا ريب في أن يستعمل أبو العلاء المعري ما يمتلك من معارف لغوية و فلسفية في ما يُدع من شعرٍ و نثرٍ، فهو يعيش -إن صحَّ التعبير- وسط ثلاثية معرفية (فلسفة و لغة و أدب) فهو فيلسوف لغوي أديب، فهو يستعمل اللغة بنظرة فلسفية في ابداعه الأدبي.

و هذا الطابع نجده طاعياً في كل مؤلفاته الأدبية، إذ نجد الفلسفة و اللغة حاضرتين في ابداعاته الأدبية، و نقصد باللغة قواعدها و مصطلحاتها التي تُدرس في كتبٍ مخصصة لهذا الغرض غير كتب الأدب (شعراً و نثراً)، و إلا فالأدب هو لغة و من اللغة، و هذا الطابع عند أبي العلاء المعري يُشير إلى " أنه اخترن في ذاكرته متن اللغة نوادر و أوابد و غريباً، مما لا تلقاه في أدب الكتاب ممن عاصروه أو تقدّموه أو خلفوه " ^(٦). و هذه المعرفة اللغوية المختزنة في ذاكرة أبي العلاء قدّمتها في إطار فلسفي في صورة

٣ - سر الفصاحة: ١٦٦.

٤ - المثل السائر: ٣٥٨/٢.

٥ - ينظر: المعري ذلك المجهول: ٣٨.

٦ - مع المعري اللغوي: ١٣.

إبداعاتٍ أدبية، إذ " اتَّخَذَ من اللغة أُنْعَمَةً لأفكاره و خواطره كان يستخرجها من حروف هجائها مرة و من مصطلحات علومها أخرى " (٧) ، و منها ديوانه (سقط الزند) و هذا ما سيَتَضَخُّ لنا في صفحات البحث القادمة.

يقول المعري:

تئُّنُّ و نصبي في أُنَيْكَ واجبٌ كما وجبَ النَّصْبُ اعترافاً على إنَّ (٨)

هذا البيت من قصيدة يرثي فيها أباه (عبد الله بن سليمان)، و ذكر في شطره الثاني مصطلحاً نحوياً هو (النصب)، هو لقبٌ من ألقاب الإعراب التي هي: رفع و نصب و جرّ و جزم (٩) ، و خصَّ الشاعرُ حالةَ الوجوب في هذا النصب و هي وجوب نصب اسم (إنَّ) ليقرنهما بحالة تعبه لأنين المرثيِّ ؛ و لعلّه اختار وجوب نصب اسم (إنَّ) على غيرها من المنصوبات الواجبة النصب لسببٍ يعود إلى قضية الوزن الشعري، فالشاعر ملتزمٌ بقضية الوزن في قصيدته، فهي مبنية على حرف النون، و ما اختاره الشاعر من المنصوبات الواجبة يتناسب مع حرف النون الذي بنى قصيدته عليه.

و هنا تظهر براعة الشاعر في قرنه و جوب نصب اسم (إنَّ) مع تعبه على أنين المرثي إذ " معنى وجوب النصبين أنّه لا يبدّ منهما " (١٠) ، فاستعمل الشاعر مصطلحاً نحوياً ليعبر عن الحالة النفسية التي هو فيها.

و يقول في قصيدة يُعزِّي فيها بعضَ إخوانه بموتِ بعضِ أهله، فيقولُ له معذراً عن تأخيرِ تعزيتِهِ له:
فالأرضُ تعلمُ أنّي متصرّفٌ من فوقها، و كأنني من تحتها (١١)

استعمل الشاعر في هذا البيت مصطلح (متصرّف) و هو مصطلح صرفي يعني تغيير بنية الكلمة و تقلبها من حال إلى حال، ففي الأسماء يعني تغيير الاسم من اسم فاعل إلى اسم مفعول إلى صيغة مبالغة، و في الأفعال يعني إتيان المضارع و الأمر و المصدر و الوصف من الفعل الماضي (١٢) ، وهو ما يُعرفُ في اللغة بـ (الاشتقاق) و الذي يُعدُّ أهمَّ وسيلة لتوليد الألفاظ (١٣) ، و هو يشير إلى أنّ اللغة الاشتقاقية لغة حياة.

و هنا نلاحظُ كيف وُفِّقَ المعري في استعمال مصطلح لغوي (متصرّف) في هذا البيت و الذي عني به الحياة، و ذكر في الشطر الثاني ما يضدّه و هو الموت في عبارة (و كأنني من تحتها) (١٤) .
و يقول في رثاء والدته:

-
- ٧- لغة الشعر عند المعري: ٧٩.
٨- ديوان سقط الزند: ١٦.
٩- ينظر: اسرار العربية: ٢٠.
١٠- شروح سقط الزند: ٩٣٢.
١١- ديوان سقط الزند: ٢٩.
١٢- ينظر: همع الهوامع: ٧٧/٢.
١٣- ينظر: دراسات في فقه اللغة للانطاكي: ٣٣١.
١٤- ينظر: شروح سقط الزند: ١٠٢٩.

استعمل الشاعرُ في هذا البيت ثلاثة مصطلحات صرفية: الصرف/التغيير و الحذف و الادغام, يقولُ البطليوسي (٥٢١هـ): " شَبَّهَ تصريف الزمان له, و نقله إِيَّاهُ من حَالٍ إلى حَالٍ, بالتصريف المستعمل في صناعة النحو. و أخبر أنّ تصريف الزمان إِيَّاهُ, سيكون عاقبة أمره أن يُمَيِّتَهُ و يُدْخِلَهُ في الأَرْضِ, فيكون بمنزلة حرفٍ أُدْغِمَ في حرفٍ آخر فذهبت صورته, و صارت معدومة... و الحذف و الادغام: نوعان من التصريف " ^(١٦), و فصَّرَفْنِي: كناية عن التغيير من حَالٍ إلى حَالٍ, و حَذْفٌ: كناية عن الموت ؛ لأنَّه أذهب صورته و أعدمها من الوجود, كحذف الحرف الذي تُعَدُّمُ صورته و يُرْفَعُ من الكلمة فيختفي من الوجود. و ادْغَامٌ: كناية عن الإدخال في القبر. و إذا عرفنا أنّ الادغام هو " جعلُ حرفين بمنزلة حرف واحد, ليرُفَعُ اللسانُ بهما رفعةً واحدةً طلبًا للتخفيف " ^(١٧), عرفنا دَقَّةَ اختيار هذا المصطلح من لدن الشاعر, فهو يُشَبِّهُ الانسان و القبر(الارض) بحرفين متماثلين صالحين للادغام ؛ لأنَّ حقيقة الانسان تراب الارض, فكأنَّه و الأَرْضُ متماثلان.

و يقولُ مادحًا جدَّه لأمته:

مضى و تعرَّفَ الأعلام فيه غنيَّ الوسم عن ألفٍ و لامٍ^(١٨)

أراد في هذا البيت أن يبيِّنَ أنّ جدَّه لأمته كان معروفًا بالكرم^(١٩) لدرجةٍ تُشَبِّهُ تعرَّفَ أسماء الأعلام من دون أداة التعريف (أل), فاستطاع أبو العلاء أن يوضِّح صورة هذه الشهرة من خلال استعماله مصطلحي (التعرَّفَ و الأعلام), فقد ذكر النحويون " أنّ العلمَ هو الاسم الخاص الذي لا أخصَّ منه و يُرَكَّبُ على المسمَّى لتخليصه من الجنس بالاسمية " ^(٢٠), فهو لا يحتاج إلى (أل) ليتعرَّفَ فهو معرفة بنفسه و لا يحتاج إلى معرفٍ غيره, فوظَّفَ المعرِّي هذا المعنى من خلال استعمال مصطلحي (التعريف و العلم) للدلالة على شهرة من يمدحه.

و يقولُ:

و أهون به في راحةٍ أريحِيَّةٍ كآخِرِ ماضٍ, ليس من شأنه الضمُّ^(٢١)

في هذا البيت استعمل الشاعر مصطلحين لغويين هما: ماضٍ ؛ أي الفعل الماضي, و الضمُّ, يقول التبريزي (٥٠٢هـ): " أي راحته تَهْتَمُّزُ للعطاء, مفتوحة أبدًا للندى, غير منضمَّة للبخيل, كآخِرِ الفعل الماضي المبني على الفتح, الذي لا ينضمُّ أبدًا, ما دام مفردًا " ^(٢٢).

١٥- ديوان سقط الزند: ٤١.

١٦- شروح سقط الزند: ١٤٣٤.

١٧- التبصرة و التذكرة: ٩٣٣/٢, و ينظر: الكتاب: ٤١٧/٤.

١٨- ديوان سقط الزند: ٤٥.

١٩- ينظر: شروح سقط الزند: ١٤٧٤.

٢٠- شرح المفصل: ٢٧/١.

٢١- ديوان سقط الزند: ١٥٦.

٢٢- شروح سقط الزند: ١١٥٨.

و هنا نلاحظ حالةً في استعمال الشاعر عبارة (آخر ماضٍ) يمكن أن نسمّيها حالة الاستدعاء، إذ استدعى بها مصطلحاً لغوياً آخر هو (الفتح)، إذ لم يقصد الشاعر المصطلح الذي ذكره في البيت الشعري، و إنما استدعى به مصطلح آخر، و هذا من شأنه أن يرسم لنا صورةً بلاغيةً رائعة هي المقابلة بين الألفاظ، إذ قابل بين الفتح الذي يعني الكرم و اطلاق اليد، و الضم الذي يعني البخل و مسك اليد. و هذا دليل على براعة أبي العلاء في رسم هذه الصورة البلاغية من خلال استعمال مصطلحات اللغة.

و منه قوله:

و يُلفى المرءُ في الدنيا، صحيحاً كحرفٍ، لا يُفارقُه اعتلالٌ^(٢٣)

في هذا البيت استعمل المعري ثلاثة مصطلحات لغوية هي: الصحيح و الحرف و المعتل، ليرسم لنا صورةً من نسج خياله الثر عن حال الإنسان في هذه الدنيا، إذ إنّ " المرء في الدنيا و إن ظنَّ أنّه صحيحٌ من العليل العرضية التي تعرض من فساد المزاج و تعادي الأخلاط، و هو في أصل وضعه مطبوعٌ على الاعتلال ؛ لأنه مركّبٌ من طبائع متناقضة لا بدّ لها من التباين و الانحلال، فمنزلته منزلة حرف بُني على الاعتلال في أصل وضعه " ^(٢٤) ، فبراعة أبي العلاء استطاعت أن تجمل لنا حال الإنسان في هذه الدنيا في بيت شعري واحد مستعيناً بثلاثة مصطلحات لغوية هي: (الصحيح و الحرف و الاعتلال)، ناهيك عن الاسلوب البلاغي الذي استعمله المعري في هذا البيت و هو تشبيه الإنسان بالحرف و المقابلة التي استعملها بين الصحيح و المعتل.

و يقول أيضاً:

حروفٌ سرّى، جاءت لمعنى أردته حروفٌ برتني أسماءً لهنّ و أفعالاً^(٢٥)

هذا البيت يدكرنا بأول موضوع يناقشه النحويون و هو تقسيم الكلمة، إذ يقول سيبويه: " فالكلم اسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس باسم و لا فعل " ^(٢٦) ، فالمعري يستعمل هذه المصطلحات اللغوية و معناها في بيان حاله في سفره، إذ شبه الجمال بالحروف ؛ لضعفها بسبب السفر، و هذه الحروف جاءت لمعنى أرادها الشاعر و هو سيرها في الليل، أمّا الاسماء فهي الحروف التي أطلقها عليها الشاعر، و هذه الحروف امتازت بالضعف، و انسحب ضعفها عليه، و قصد بالأفعال: عملية الحركة و الانتقال التي هو فيها بسبب السفر على هذه الحروف (الجمال) ؛ لأنّ الأفعال تصرف الاسماء فتارة ترفعها و أخرى تنصبها، و يجوز أن يقصد بالاسماء المسميات ؛ لأنّ الأفعال من دون هذه المسميات لا تقوم بذاتها ^(٢٧).

٢٣- ديوان سقط الزند: ١٨٤.

٢٤- شروح سقط الزند: ١٦٦٠.

٢٥- ديوان سقط الزند: ٢٣٢.

٢٦- كتاب سيبويه: ١٢/١.

٢٧- ينظر: شروح سقط الزند: ١٢٥٥، ١٢٥٦.

الخاتمة:

١. استطاع أبو العلاء أن يجعل من المصطلح اللغوي وعاءً يستوعب مفاهيم كائنة في الوجود كالموت مثلاً الذي عبّر عنه بالحذف, و الحياة عبّر عنها بالمتصرّف.
٢. لم يكن أبو العلاء يستعمل المصطلح اللغوي لذاته بل استعمله لغيره من الدلالات.
٣. و لكونه أديباً بارعاً استطاع المعري توظيف ما يمتلك من خبرة لغوية - و لا سيّما المصطلح اللغوي- في أعماله الأدبية.

المصادر و المراجع:

- أسرار العربية, أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري (٥٧٧هـ), تحقيق: محمد بمجت البيطار, مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق, د. ط., د. ت.
- التبصرة و التذكرة, ابو محمد عبد الله بن علي بن اسحاق الصيمري (من نحاة القرن الرابع), تحقيق: د. فتحي احمد مصطفى علي الدين, دار الفكر, دمشق, ط ١, ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- دراسات في فقه اللغة, محمد الانطاكي, ط ٤, دار الشرق العربي, بيروت, ١٩٦٩م.
- سقط الزند, أبو العلاء المعري, دار بيروت و دار صادر, بيروت, ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
- سر الفصاحة, أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (٤٦٦هـ), ط ١, دار الكتب العلمية, بيروت-لبنان, ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
- شروح سقط الزند - خمسة أجزاء - للتبريزي و البطليوسي و الخوارزمي, تحقيق: لجنة بإشراف الدكتور طه حسين, الهيئة المصرية العامة للكتاب, ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- شرح المفصل, الشيخ موفق الدين يعيش ابن علي بن يعيش (٦٤٣هـ), ادارة الطباعة المنيرية, مصر, د. ت.
- كتاب سيبويه, تحقيق: عبد السلام محمد هارون, مكتبة الخانجي, القاهرة - مصر, ط ٣, ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- لغة الشعر عند المعري - دراسة لغوية فنية في سقط الزند, د. زهير غازي زاهد, ط ١, عالم الكتب و مكتبة النهضة العربية, بيروت, ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.
- المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر, أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير الموصلبي (٦٣٧هـ), تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد, مطبعة مصطفى الباوي الحلبي و أولاده بمصر.
- المعري ذلك المجهول - رحلة في فكره و عالمه النفسي, عبد الله العلايلي, ط ٣, دار الجديد, بيروت-لبنان, ١٩٩٥م.
- مع المعري اللغوي, د. ابراهيم السامرائي, ط ١, مؤسسة الرسالة, بيروت, ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- همع الهوامع.